المفردة القرآنية
خصوصيتها الدلالية وخواصُها البيانية الجمالية

بقلم
أ/ حمزة بوخزنة (*)

ملخص

الحمد الله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين، وأما بعد:

هذا مقال بعنوان : « المفردة القرآنية خُصُوصِيتُها الدلالية وخَواصُّها البيانية الجمالية»

تتحدث هذه المقالة عن أحد أبرز العناصر أهمية وأثرا على مستوى النص القرآني، وهي «المفردة القرآنية»؛ فهي المفتاح الدلالي الذي يمكننا من فهم معانية، وكذا الوقوف عند دلائل إعجازه اللغوي. كما تناولت بعض الملامح الدلالية الجمالية التي تتميز بها المفردة في التعبير القرآني.

الكلمات المفتاحية: النص – القرآن – البيان – الإعجاز – لغة القرآن.

مقدمة

حظيت المفردة القرآنية بدراسات لغوية ودلالية من نواحي كثيرة دأب العلماء في طريق عنايتهم بكتاب الله يستجلونها على اختلاف توجُّهاتهم وتنوع مناهجهم وأساليبهم في البحث كل حسب رأيه وعلمه، مفسرين كانوا أو لغويين أو نحاة أو بلاغيين أو علماء إعجاز أو غيرهم ممن عُنوا بكتاب الله، وما هذا إلا دليل يبرز مدى حرصهم العميق بضرورة العناية بالمفردة القرآنية، وبأهميتها في فهم كتاب الله ﷻ.

(*) أستاذ مساعد "ب" بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ـ جامعة الوادي ـ الجزائر.
hamzaboukhezna@gmail.com

واعتبارها وحدة مركزية جليلة القدر في البناء القرآني خوّلت لها هذه المكانة بأن تحظى بهذا الكم الهائل من الدراسة والبحث من قبلهم.

الخصوصية الشكلية والمعرفية للمُفردَة القُرآنية:

تعددت عناية العلماء بالنص القرآني من جوانب كثيرة مسّت مختلف تراكيبه وأساليبه، وكان من بين هؤلاء المهتمين بدراسته طائفة من المتكلمين وعلماء البلاغة من الذين تصدوا للكشف عن وجوه إعجازه. وهم على الرغم من جهودهم تلك لم يروا تعلق الإعجاز بمفرداته من حيث هي أوضاع مفردة خارج النظم. فالنظم هو المعول عليه في إدراك الإعجاز وهو مناط التحدي عندهم، وأبرز من يمثل الذروة في جهودهم الإمام عبد القاهر الجرجاني. الذي تصدى كثيراً للمُعتدِّين بالألفاظ أو الصياغة اللفظية كما يظهر في كتابه "دلائل الإعجاز" خاصة من بعض المعتزلة، وكذا مما نحى إليه بعض نقاد اللغة والأدب من الذين غالوا في صرف بلاغة الكلام وجودته لجنب الألفاظ[1] مهملين بذلك شأن المعاني؛ كأبي هلال العسكري مثلا... [*] ممّا أدى به للرّد عليهم مقدماً نظرية النظم بديلاً – يجمع بالنظم بين كلا الطرفين الألفاظ والمعاني– خاصة فيما تعلق بإعجاز القرآن منه.[2]

يذهب الإمام عبد القاهر إلى أنّ الألفاظ خارج النظم لا يتعلق بها شيء من الفصاحة، ولا تقع المزية في الحكم على الكلام إلا بضم بعضها إلى بعض عن طريق النظم، وهي لا تعدو أن تكون خارجه مجرد حروف منظومة فقط، ليس بينها وبين مدلولها علاقة اقتضاه العقل عند الوضع في قوله: «إنَّ نظمَ الحُروفِ هو تَواليها في النُّطقِ فقط وليس نظمُها بمقتضًى عن معنى ولا النَّاظمُ لها بمقتفٍ في ذلك رسماً منَ العقلِ اقتضَى أن يتحرَّى في نظمِهِ لها ما تحرَّاه فلو أنّ واضع اللُّغة كان قد قال: "ربضَ" مكان ضرَبَ لما كَانَ في ذلك ما يؤدي إلى فسادٍ. وأما نظمُ الكلمِ فليسَ الأَمرُ فيه كذَلك لأنك تَقْتضي في نظمِها آثارَ المعاني وتُرتِّبُها على حسبِ ترتيبِ المعاني في النَّفس، وأما نظمُ الكلمِ فليسَ الأَمرُ فيه كذَلك لأنك تَقْتضي في نظمِها آثارَ المعاني وتُرتِّبُها على حسبِ ترتيبِ المعاني في النَّفس.

فهو إذاً نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ وليسَ هو النَّظم الذي معناهُ ضَمُّ الشَيءِ إلى الشّيءِ كيف جاءَ واتَّفق».[3] ويقول أيضا : « اعلمْ أنَ هاهنا أصلاً أنت ترى الناسَ فيه في صورة من يعرِفُ من جانبٍ وينكر من آخر وهو أن الألفاظَ المفردةَ التي هي أوضاعُ اللغة لم توضَع لتعرفَ معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضُها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد...».[4]

يفهم من كلام الإمام أنّ الكلمة مجرد رمز (سمة) يشير إلى مرموزه، وليس بينهما علاقة، وبالتالي فعلاقتها بمدلولها اعتباطية آنية يحددها النظم وفقا للمعاني المترتبة في النفس التي تأتي الألفاظ خادمة وتابعة لها بحكم أصالتها وتقدمها. فواضع اللغة كما يرى لو قال مكان " ضرب " الدال على حدث معين واقع من فاعل له قولَه "ربض"، وجعل هذه الصورة من ترتيب الحروف في النطق دالة على عين ما دلت عليه "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وكأنه يذهب إلى أنَّ وضع الألفاظ بصيغتها التي هي عليها إزاء ما تدل عليه من المعاني ليس وضعاً موضوعياً مرتبطاً بعلاقة حروف اللفظ بمعناه، فهو مجرد وضع عرفي اعتباطي.[5] يقول أحمد مطلوب عن رأي الإمام في الألفاظ في حدود نظرته النسقية الكلية للنظم: «إنّ نظرته إلى نسق الكلام وارتباط بعضه ببعض جعلته يتخذ النظم أساسا في نقد الكلام. ولذلك كانت الألفاظ عنده رموزًا للمعاني المفردة التي تدل عليها هذه الرموز أو مجرد علامات للإشارة إلى شيء ما وليست للدلالة على حقيقته، والإنسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولاً ثم يعرف هذا اللفظ الذي يدل عليه».[6]

وهذا عين ما حاول عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير إثباته في إطار تأسيسه لعلم اللسانيات، عندما اتجه تفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتباره للغة ظاهرة اجتماعية، بعدما كانت تدرس دراسة تاريخية، واللغة عنده نظام من العلامات التي تتكون من شيء مسموع ومن تصور مرتبط بها ارتباطا لا انفصام له، ولذلك لا يكون للكلمة قيمة إلا من خلال نظمها أو تركيبها، أي: أنّ هذه العلامات اعتباطية

تكتسب أهميتها عن طريق التقابل. فالكلمة مجرّد إشارة وليست اسمًا دالا على ماهية المسمى بل هي كل مركب يربط الصورة السمعية والمفهوم، و يقصد بذلك الدال وهو الصورة السمعية، وأما المدلول فهو المفهوم. ومنهما يتكوّن الدليل اللغوي.(7)
وسنحاول من خلال هذه النظرة لطبيعة الألفاظ التركيز على المفردة القرآنية كونها ذات خصوصية لها دورٌ محوريٌ في التشكيل البنائي والمعرفي للنص القرآني. انطلاقاً من النظر إلى مرجعيتها الإلهية مما يجعلها تتسم بالاطلاقية في تسمية الأشياء ونقل المعارف و المعاني والدلالات القرآنية.

1- التميز على المستوى الشكلي للمُفردَة القُرآنية:

للنصّ القرآني خصوصياته التي ينفرد بها عن النّصوص اللغوية الأخرى, ولعل الناظر لكلام عبد القاهر الجرجاني وما جاء به الدرس اللساني الحديث حول دلالة المفردة يجده أكثر ما ينطبق على لغة البشر في توظيفها لمفرداتها المعجمية دون اللغة القرآنية المحكمة؛ فما ذهب إليه الإمام من أن المفردة لا يحصل لها شرف الفصاحة في الكلام إلا بانتظامها مع غيرها في سلك النظم، فهذا واقع في الاستعمال البشري, وأما المفردة القرآنية نجدها وإن كانت خارج النظم تبقى لها خصوصيتها في إطار قرآنيتها؛ ودليله أننا لو جئنا إلى نص نثري أو شعري، وانتزعنا منه كلمة فإنها خارج النظم لا تدل إلا على معناها المعجمي الذي وضعت له فحسب. ويمكننا استبدالها بمفردة أخرى من حقلها الدلالي، قد تكون أكثر ملائمة منها للمعنى وأبلغ للدلالة عليه، والنظم حينئذ قائم لم تتم سوى عملية تغيير المفردات. فهذه العملية قد لا تؤثر على بنية النص المصاغ بشرياً ، لأنّ الكلمة المستبدلة قد تكون أدق في نقل المعنى والتعبير عليه. وهذا الأمر التنقيحي يحصل كثيراً للنصوص ذات الصياغة البشرية خاصة عند الكتاب والشعراء(*)، لأن مفردات نصوصهم تعبر عن معاني خاضعة لتصوراتهم الذهنية النسبية، وإلى مدى إدراكهم لها، ومن ثَمَ يكون التعبير عليها بما يناسبها من مفردات تُستحضر من الرصيد اللغوي خاضعةً للمقدرة الأدبية والفنية في نقل المعاني وإبلاغها

للمخاطب بأتم وأوضح أسلوب.

ونلفى أيضا أنّ المفردة في الاستعمال البشري في النص أو الغرض الأدبي الواحد تحسن في موضع لمعنىً ولا تحسن في غيره، وقد بيّن هذا الإمام عبد القاهر بقوله: «...إنا نرى اللفظةَ تكون في غايةِ الفصاحةِ في موضعٍ ونراها بعينها فيما لا يُحصى من المواضِع وليس فيها منَ الفصاحة قليلٌ ولا كثيرٌ. وإنما كان كذلك لأنَّ المزيةَ التي مِنْ أجلها نَصِفُ اللفظَ في شأننا هذا بأنه فصيحٌ مزيةٌ تحدثُ مِنْ بَعْدِ أن لا تكونَ وتظهرُ في الكلم من بعد أن يدخُلَها النظم».[8]

ولكن هذا الأمر بالنسبة لمفردات القرآن غير متعيّن، فلا يمكن بأيّ حال أن ينطبق على النص القرآني المطلق دلاليّا في نقل معانيه، فلو جئنا إلى أيّة مفردة منه لوجدناها في جميع مواضعها بمختلف اشتقاقاتها متمكنة في سياقها محققة وجودها الذاتي فيه بما تحمل من المعارف والدلالات التي صبها الله ﷻ في قالبها التركيبي الصياغي، ولو استبدلت بأخرى لما استقام الأمر، ولما كانت المفردة المستبدلة بها أدق منها في الدلالة عن ذات المعنى الإلهي المراد، هذا وإن دلت المفردة القرآنية وهي خارج قرآنيتها عن معنىً معجمياً، باعتبارها محتواة داخل النظام المعجمي للغة العربية عموماً. إلا أنّ هذا الأمر لا يُصادر ماهيتها ذات الخصوصية القرآنية بأبعادها المعرفية المطلقة، وذلك لأنّ للقرآن معجمه الخاص في التعبير عن معانيه ومعارفه ومفاهيمه، وهذا ما يجعل من توظيفه للغة عموماً وللمفردات خصوصاً يختلف جذريا عن الاستعمال البشري لها، ويجعل منه نصا يحمل معجمه في داخله ويحمي دلالاته. وهذا ما أكّدت عليه عائشة عبد الرحمن في قولها: «القول بدلالة خاصّة للكلمة القرآنية، لا يعني تخطئة سائر الدلالات المعجمية، كما أنّ إيثار القرآن لصيغة بعينها، لا يعني تخطئة سواها من الصيغ في فصحى العربية. بل يعني أننا نقدّر أنّ لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه الخاص، فنقول إنّ هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية، ثم لا يعترض علينا بأنّ العربية تعرف صيغاً ودلالات أخرى للكلمة».[9]

ولعل السبب في خصوصية المعجم القرآني ينطلق من طبيعة التركيب البنائي والمعرفي للنص القرآني عموماً الذي يعد فيه الحرف هو اللّبنة الدلالية الأولى. وبذلك تأتي المفردة بالقرآنية بشكل خاص فيه «وصفاً مطلقاً لماهية الموصوف، من خلال اجتماع معاني الحروف المكونة لهذه الكلمة بترتيب معين، فالكلمات التي تتكون من الحروف ذاتها، يعود الاختلاف في ما تحمله من معانٍ إلى الاختلاف في ترتيب الحروف المكونة لهذه الكلمات، مع الأخذ بعين الاعتبار كون الحرف ينتمي للجذر اللغوي الذي تفرعت عنه الكلمة، أو كونه لا ينتمي إلى هذا الجذر وكلُّ ذلك ضمن قوانين ونظم مطلقة تنتظمها وحدات المعنى (الحروف) في صياغة مطلقة صاغها الله تعالى من اللبنات الأولى للمعنى؛ وهي (27) حرفاً قرآنياً، بحيث يتم من خلالها الوصف المطلق للأمور والأشياء، وصفاً يحمل مفاتيح كلّ شيءٍ في هذا الكون».[10] وعلى هذا الأساس يكون للقرآن ميزان خاص ينطلق من الحرف ليشمل الكلمة فالجملة ومن ثم التركيب القرآني العام كوحدة متكاملة. فكل مفردة فيه تخضع لهذا الميزان المحكم، كما أنّ للكون ميزان إلهي دقيق يخضع له حتى لا يقع فيه الاختلال، فكذلك كل حرف في النص القرآني وعلى مستوى المفردة موضوع بمقدار وبعناية إلهية مطلقة من لدن حكيم خبير، ومن هنا يمكننا أن نقف على مدى إدراك الإمام السيوطي لأبعاد هذه المسألة عندما قال: «وأنّ تحتَ كلّ حرفٍ منه معانيَ لا يُحاط بها كثرة، فلا يقدرُ أحدٌ أن يأتيَ بدلهُ بما يشتملُ عليه».[11]

فكلمة (ضَرَبَ) في التعبير القرآني المتكونة من (الضاء والراء والباء) هي بهذه الحروف متصلة بالبنية القرآنية التي تمنع أدنى تغيير قد يطرأ عليها في ترتيب حروفها دون أن يمس بدلالتها ومعناها، ولو لم يؤدي هذا القلب إلى تحول في المعنى، وإن تعارف الناس واصطلحوا على تلك البنية الجديدة للكلمة في أعرافهم اللغوية، فلو أنّ الواضع كما قال عبد القاهر: « قال: "ربَض" مكان ضرَبَ لما كَانَ في ذلك ما يؤدي إلى فسادٍ».[12]

قد قد لا يمنع العرف اللغوي أو الاصطلاح حصول ذلك، فيقبل هذا التغيير الطارئ على المستوى الشكلي للمفردة بحكم ما يعرف بنظرية التطور اللغوي مع بقاء المعنى، ونجد هذا واقعاً لمفردات كثيرة، وتعرف هذه الظاهرة في كتب فقه اللغة بالقلب المكاني.[13] ولكن هذه المسألة على مستوى النص القرآني المطلق لا تقع بحال من الأحوال, فكلمة (ربض) فرضاً وإن عبرت عن المعنى ذاته لكلمة (ضرب)، فهي بهذا النظام الحرفي تعد غريبة عن النص القرآني، لأنّ كلمة (ضرب) في النص القرآني مرتبطة بحقائق قرآنية لا متناهية يحملها هذا اللفظ في بنيته. فالمفردة مقصودة بذاتها دون غيرها، وهي بتركيبها الشكلي أعطاها الله وجودها القرآني الحقيقي الذاتي. هذا ونجد ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة الإبدال التي تطرأ على حروف الكلمة, وذلك بأن «يبدل حرف مكان آخر، والكلمتان تحملان المعنى نفسه. نحو: اسطبر واصتبر، وجاس وحاس، وجذا وجثا...»[14] يقول ابن فارس: «ومن سنن العرب إبدالُ الحروف وإقامة بعضها مقام بعض، ويقولون: (مَدَحَه. ومَدَهَه) و(فَرسٌ رِفَلٌّ. ورِفنٌّ)، وهو كثير مشهور قد ألَّف فيه العلماء. فأمّا ما جاء في كتاب الله جل ثناؤه فقوله جل ثناؤه: "فانْفَلَقَ فكان كلُّ فرْق" فاللام والراء يتعاقبان كما تقول العرب: فلقُ الصبح. وفَرَقه. وذُكر عن الخليل ولم أسمعه سماعاً أنه قال في قوله جلّ ثناؤه: " فجاسوا ": إنما أراد فحاسوا فقامت الجيم مقام الحاء، وما أحسب الخليل قال هذا ولا أحقُّه عنه».[15]

إنّ القول بوقوع هذه الظاهرة في النص القرآني كما يبدو ينحو بنا إلى الإقرار بوجود ظاهرة الترادف في القرآن. كما ذهب إلى القول بها ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦]؛ يقول: «(بكّة) اسم مكة. وهو لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة عدت من المترادف: مثل لازب في لازم، وأربد وأرمد أي في لون الرماد».[16]

إنّ ورود هذه المفردة في سورة آل عمران بهذا التركيب الحرفي لها دلالاتها القرآنية الخاصة المتعلقة بها التي تحتاج إلى البحث للكشف عن أسرارها التي أودعها الله فيها،

لأنها بهذا التركيب مرتبطة بحقائق مطلقة مركوزة داخل بنيتها المصاغة بها وفق نظامها الحرفي دون غيره. ولم ترد كلمة (مكّة) – التي وردت هي الأخرى في موضع واحد من سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٤] – مكان (بكة) حتى تجعل (مكة) مرادفة لها في المعنى وتفسر بها تفسيرا تاماً في موضع سورة آل عمران. والشيء نفسه يقال: في كلمة لازب، وفالق وجاسوا وغيرها من المفردات التي يظن بترادفها معانيها بالنظر إلى ظاهرة الإبدال المعروفة في اللغة العربية.

ولعل هذا الأمر يتأكد لنا أكثر عندما نعلم أنّ للقرآن رسمه الخاص الذي يتميز به عن الرسم الإملائي القياسي. هذا الرسم الذي يعد من مظاهر إعجازه، ووجوه كمال لغته. فمثلاً كلمة (رحمت) و (نعمت) و(فطرت)... وغيرها من المفردات التي وردت (بالتاء المفتوحة) هي بهذا الرسم تدل بذاتها على سر من الأسرار اللامتناهية التي أودها الله فيها، وهذا الأمر متعلق بكل مظاهر الرسم القرآني التي بيّنها العلماء وأحصوها.(17) فلو انتزعنا هذه المفردات من سياقها القرآني، ونظرنا إليها منفردةً فستبقى لها خصوصيتها القرآنية بذلك الرسم الذي نزلت به من عند الله. فاللفظة بهذا الرسم فصيحة ومعجزة بذاتها لما تنطوي عليه من أسرار بيانية ومعرفية وعلمية.... بله دخولها في سلك النظم. ومن الأمثلة الدالة على ذلك اسم خليل الله إبراهيم عليه السلام، جاء مرسوماً على هيئتين: ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ و﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ . فما السر الدلالي المتعلق بهذا التركيب على مستوى المفردة في حد ذاتها دون تعلقها بالنظم؟ إذ وردت هذه المفردة القرآنية دون ياء في كامل مواضعها من سورة البقرة، بينما في باقي السور جاءت بها؟

نقف على هذا السّر البياني والمعرفي المعجز المركوز في بنية هذه المفردة من خلال ما توصل إليه عدنان الرفاعي، وذلك عند بيانه لكيفية تدرج الرسالات السّماوية منذ آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسول ﷺ. فقد قسمها إلى مرحلتين: مرحلة تبدأ من آدم عليه السلام وتنتهي عند إبراهيم قبل إنجابه، ومركزها نوح عليه السلام. ومرحلة ثانية تبدأ بإبراهيم عليه السلام

بعد إنجابه، وتنتهي بالنزول الثاني لعيسى عليه السلام. ثم قسم المرحلة الثانية إلى حلقتين: الأولى: تنطلق من إبراهيم عليه السلام بعد إنجابه، وتنتهي بالنزول الأول لعيسى عليه السلام، وتبشيره بالرسول أحمد ﷺ، إذ كان اسمه ﷺ قبل بعثته؛ هو: أحمد . والحلقة الأخرى تبدأ بالرسول محمد ﷺ، وتنتهي بالنزول الثاني لعيسى عليه السلام.[18] والذي يهمنا من هذا التقسيم ما انطوت عليه كلمة ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وفق هيئة رسمها من دلالات معرفية تبرز لنا تعلق الإعجاز القرآني بالمفردة القرآنية في حد ذاتها. ويذهب عدنان الرفاعي إلى الاستدلال على صحة تقسيمه من القرآن في قوله تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى:١٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦]. فقوله تعالى في النص الأول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ يشير إلى المرحلة الأولى، وقوله: وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ يشير إلى المرحلة الثانية. والنبوة والكتاب المرتبطان بالذرية كما يلاحظ في النص الثاني جعلت في مرحلة الرسالات السماوية في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ ولما كان إبراهيم عليه السلام من ذرية نوح من جهة، وفي ذريته جعلت النبوة والكتاب من جهة أخرى. فعلينا أن نميز إذن: بين إبراهيم من ذرية نوح قبل إنجابه، حيث تلك نهاية المرحلة الأولى، وبين إبراهيم بعد إنجابه حيث بداية المرحلة الثانية.[19]

تبرز لنا الحكمة القرآنية المعجزة على مستوى الرسم القرآني بأبعاده الدلالية والمعرفية المختزنة داخل بنيته التركيبية لمفرداته، وذلك عندما نرى الحكمة في رسم كلمة ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ بدون ألف في بداية القرآن الكريم كله في سورة البقرة كلها دون حرف الياء (أ ب ر ه م). وذلك إشارة إلى بداية حياة إبراهيم الخليل عليه السلام قبل إنجابه، حيث تنتهي المرحلة الأولى. بينما جاءت في باقي القرآن معبرة عن بداية المرحلة الثانية من تدرج الرسالات

السماوية، فوردت بالياء ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.[20] وبهذا نلاحظ أنّ المفردة في بنية التركيب القرآني مقصودة بذاتها، ومعجزة من هذه الناحية لما تحمله من دلالات معرفية مطلقة ضمن صياغتها الإلهية التي تدعو إلى كشف حجبها للوقوف على حقائقها المعرفية وأسرارها البيانية المعجزة المطوية فيها.

ويجلي هذا الإعجاز على مستوى بنية المفردة القرآنية في دلالة الاستطاعة في التعبير القرآني، في قوله تعالى عن محاولة بلوغ يأجوج وماجوج للسّد: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٧]. جاء التعبير القرآني بكلمتي: (اسطاع) و(استطاع) في آية واحدة لتصف حدثاً معيناً، وذلك ما يدلّ بأنّ لكل منهما دلالة معرفية خاصة بها، فاستطاع لها حقيقتها الذاتية في نقل المعنى واسطاع لها هي كذلك وجودها الذاتي في نقل المعنى المراد وفق بنيتها الشكلية تلك. ومن هنا يمكننا القول بأنّ كل من الصيغتين على الرغم من أنّهما من ذات الجذر اللغوي، فهما من حيث البنية المعرفية والدلالية كما يلاحظ، لا يؤديان ذات المعنى في النص القرآني. وكل مفردة بالنظر رسمها القرآني تحمل معنىً إضافيا للسياق أو النظم الواردة فيه يحتاج إلى البحث والكشف عن سره، وقد حاول العلماء الكشف عن النّكتة البيانية في هذا الاستعمال القرآني، فلاحظوا أنّ هناك فرق بين دلالة الكلمتين، يقول ابن الزبير الغرناطي: «جيء أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور السد والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفىً الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه وخرقه، ولا شك أنّ الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجيء بالفعل مخففاً مع الأخف، وجيء به تاماً مستوفى مع الأثقل فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب».[21]

2 – التميّز على المستوى الدلالي المعرفي للمُفردَة القُرآنية:

أشار عبد القاهر الجرجاني في كلامه السابق إلى قضية دلالية مهمة وخطيرة؛ تتمثل في طبيعة العلاقة بين الدال بمدلوله، وهي كما يظهر من كلامه مجرد علاقة عرفية، والتي يعبّر عليها في الدرس اللساني بالاعتباطية. وهذه المسألة تعود بجذورها كما يرى إبراهيم

أنيس إلى عصر المفكرين اليونان القدماء.[22] إلى أن تسنّى لها التنظير في الدرس اللساني الحديث على يد مؤسسه فرديناند دي سوسير وأتباع مدرسته.[23]

وقد نشأت بالنظر إلى اللغة كظاهرة اجتماعية، أداة للتواصل والتعبير عن الأغراض والحاجيات. لذلك تتأثر أوضاعها اللغوية واستعمالاتها بذهنية المجتمع المستعمل لها. هذه الذهنية المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالأحوال الاجتماعية والثقافية المعرفية المتغيّرة. فكان القول باعتباطية العلاقة بين الدال ومدلوله متأثراً بهذا التغير في التعبير عن ماهية الأشياء في حدود زمكانية تواجدها، فتدرس اللغة على هذا الأساس «باعتبارها ظاهرة متزامنة تحولاً ثورياً في المنظور».[24] وقد عبّر الرافعي عن هذا التصور للغة " اللغة بنت الاجتماع " في قوله: «الأصل في اللغات تشعّب الجماعات؛ فإنّ اللغة كما أسلفنا بنت الاجتماع، وهي ألفاظ ملك السامع في الحقيقة لا ملك المتكلّم، لأنّها لا يُلغَى بها لَغوَ الطائر، ولكنّها تلقى لدلالة خاصة يعيّنها الاصطلاح العرفي بين المتكلّم والسامع، وهذا الاصطلاح عمل اجتماعي محض لا يتهيّأ لفرد بينه وبين ذات نفسه... ولكنّ اختلاف اللغات عمل صناعي تكيّفه حالة الاجتماع كما تكيّف سائر الأحوال من العادات و أمثالها؛ ولهذا كانت حقيقة معنى اللغة أنّها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع».[25]

ولعل السؤال الذي نقف عنده من خلال هذا التصوّر للغة؛ هل يمكن أن نتصور العلاقة القائمة بين الدال والمدلول على مستوى البنية الدلالية للمفردة القرآنية بأنها علاقة عرفية اعتباطية؟ ونحن نعلم أنّ صائغ هذا النص المعجز هو الله ﷻ المطلق المتنزّه عن النّسبية، المحيط بحقائق كل شيء علماً ؟

يتميز النص القرآني ببنية لغوية كاملة تركيباً وخطاباً، ولا يمكن أن تخضع مفردات هذه البنية المحكمة من لدن حكيم عليم لهذه العلاقة، لتفرّدها عن سائر النظوم البشرية من حيث المصدر والصياغة. فالنص القرآني مركب من مفردات تحمل دلالاته ومعانيه، وهي جزء لا يتجزأ منه، لذلك فهي تحمل صبغة ذاتية تبتعد بها عن الأوضاع اللغوية

الاصطلاحية ومختلف علاقاتها، فلا يمكن أن نتصور أن يضع المولى ﷻ دلالاته المطلقة في قوالب لغوية حدودية أو نسبية خاضعة للتصور البشري النسبي، وإنما يضعها في قوالب لغوية يمكنها أن تحمل معانيه المطلقة وتستوعبها ضمن بنيتها. ولذلك لا يمكن أن نصف العلاقة بين الدال ومدلوله في النص القرآني بأنها اعتباطية، لأنّ واضع هذه المفردات بمعانيها وفق علمه هو المولى ﷻ الذي يدرك بإحاطته وعلمه المطلق حقائق الأشياء كلها، ونحن نقف على حقيقة هذا في الأسلوب المتفرد للقرآن في الكشف عن معانيه, وهذا الأسلوب «يتمثل في الصبغة الذاتية التي يحملها الكلام، فهي صبغة ربانية إلهية. هذه الصبغة الإلهية قائمة في كل كلمة من كلمات القرآن. وكل كلمة أعطاها الله تعالى وجودها الحقيقي الذاتي، وهذا له الوجود الفعّال. وهذا لا يدرك عند البشر وإنما يرمز له، فالمعاني الإلهية من قدرات غير محسوسة. وهذه الصبغة الإلهية تشكل الطابع الإعجازي».(26)

إنّ المفردة اللغوية وإن كانت كما يقول عدنان الرفاعي «بمثابه الوعاء بالنسبة للمعنى كما أنّ الكأس وعاء السائل الذي يوضع فيه، ولا يمكن للوعاء أن يحمل أكثر من حجمه الذي صمم من أجل حاجته الوظيفية فإنّ الكلمة الوضعية التي اصطلح عليها البشر تحمل من المعاني والدلالات ما يتناسب مع علم واضعها، ولا يمكن تحميلها من المعنى والدلالات أكثر مما حمّلها واضعها، فهي ذات المعنى الذي أدركه واضعها للشيء الذي وضعت الكلمة اسما له، وبالتالي تبتعد هذه الكلمة الوضعية عن ذات المعنى الحق لهذا الشيء مسافة جهل واضعها بحقيقة هذا الشيء».(27)

ولقد بيّن المولى ﷻ حقيقة ذلك في كون القرآن نُزّل تبياناً لكل شيء ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. فهذا يقتضي أنّ دلالات ومعانيه ومعارفه التي يقدّمها مطلقة وغير متناهية، وهذا لا «يتأتى إلا أن تكون مفرداته أوعية تحمل من المعاني والدلالات ما يحيط بكليات كل الأشياء في هذا الكون، وهذا لا يكون إلا إذا كان صائغها محيطا بكليات كل شيء في هذا الكون، ونزّلها

من عنده إلى عالمنا دون أي تحويل أو تغيير، و بالتالي فالكلمة القرآنية هي ذات المعنى الحق للشيء الذي تسمّيه هذه الكلمة».(28)

ولعلنا من خلال هذا التصور لطبيعة العلاقة بين الدال ومدلوله في النص القرآني يمكن أن ندرك سعة حجم النشاط التفسيري في دراسة البنية القرآنية على مر العصور خاصة على مستوى مفرداتها التي تتميز بحيوية دلالية – من خلال ما تتميز به من خصائص والتي سنقف عند بعضها فيما سيأتي- تُساوق وتُواكب روح كل عصر بما يتميّز به من ثقافات وعلوم ومعارف، ولا تتناقض هذه الحيوية الدلالية ووحدة المنهج القرآني المعرفي غير المتناقضة مع الواقع، مما يجعل منه نصاً قابل للقراءة باستمرار عن طريق التدبر، وكل هذا الأمر كامن في الطبيعة المعرفية للمفردة القرآنية, لأن لها من عمق الدلالة كما يقول عبد الصبور شاهين «ما يجعلها ذات مساحة عريضة مترامية، وذات عمق لا تبلغ مداه العقول، وإذا كان ذلك في محاولات البشر ولغاتهم قليلا في استعمالهم، فإنّ القرآن جاء على هذا النمط الفريد الباهر».(29) وقد أحسن في وصف هذه الأعماق اللامتناهية لدلالة الألفاظ القرآنية في قوله: «والعجب العجاب في ألفاظ القرآن: وضوح زاحف إلى خفايا المجهول، فلا أمل في بلوغ منتهاها».(30)

وأمّا إذا نظرنا إلى طبيعة المعرفة البشرية بالأشياء ووصفها نجدها خاضعة لمدى الإدراك الذهني لحقيقتها كاملة وإحاطتهم بجميع جوانبها حتى يُتمكن من التدليل والإشارة إليها بمدلول يتناسب وتصورها المنطبع في الذهن والنفس، وهذه المعرفة لا شك للبشر نسبية، لأنّ فُهومهم ومداركهم تختلف. فقد يوضع لفظ لشيء ما نتيجة لصفة مميزة فيه كصوته مثلا فيشتق له اللفظ أو المدلول منه فتُتَصور المناسبة بينهما من هذه الناحية. فيدل نطق الكلمة وجرس حروفها على قدر كبير من المعنى الذي يكمن فيها، ومن هنا يمكن أن نتصور جانباً من طبيعة اللغة العربية القائمة على هذه الميزة إذ يصبح اللفظ كما يقول وليد قصاب «مفيد وحده قبل أن يسلك مع غيره في سياق النظم والتركيب إيحاءً بقدرٍ كبيرٍ من معناه, وتكون براعة الأديب وحسه الفني المرهف عندئذ

في إدراكه لهذه الإيحاءات وتصيدها والاستفادة منها في المعنى الذي يريد التعبير عنه».[31] وهذا ما نبّه الخليل بن أحمد الفراهيدي إليه في قوله: «... صَرَّ الجُنْدُب صريراً وصَرْصَرَ الأخطَبُ صَرْصَرَة، فكأنّهم تَوَهَّموا في صوت الجُنْدُبِ مَدّاً، وتَوَهَّموا في صوت الأخطب ترجيعاً».[32]

ولعلنا من هذا المنطلق يمكن أن نفسر محاولة من قالوا بوجود مناسبة بين الدال ومدلوله [33] مفسرين علاقة الألفاظ بمعانيها، ومن أبرزهم ابن جني الذي رأى أنّ كثيرا من الألفاظ وضعت على سمت أصوات الأحداث المعبر عنها. يقول في هذا الباب هو: «باب عظيم واسع ونَهْج مُتْلئِب عند عارفيه مأموم . وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبرَّ بها عنها فيعدلونها بها ويحتذُونها عليها. وذلك أكثر ممّا نقدّره وأضعاف ما نستشعِره».[34] ومن ذلك قولهم: خَضِم وقِضِم. فالخَضْم لأكل الرَّطْب كالبِطّيخ والقِثَّاء وما كان نحوهما من المأكول الرَطْب. والقَضْم للصُلْب اليابس نحو قضِمتِ الدابَّة شعيرها ونحو ذلك. وفي الخبر قد يُدْرَك الخَضْم بالقَضْم أي قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشَظَف. وعليه قول أبي الدرداء: (يخضَمون ونقضم والموعِد الله). فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْب، والقافَ لصلابتها لليابس حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن:٦٦]. فجعلوا الحاء – لرقّتها – للماء الضعيف والخاءَ – لغِلَظها – لما هو أقوى منه.[35] ومن ذلك أيضا قولهم: بحث. فالباء لغلظها تُشبه بصوتها خَفقة الكفّ على الأرض والحاء لَصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثِن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض والثاء للنفثِ والبث للتراب . وهذا أمر تراه محسوسا محصَّلا فأيُّ شبهةٍ تبقى بعده أم أيّ شك يعرض على مثله...[36]

هذا وقد يوضع اللفظ لمناسبة أخرى تدرك كشكله أو صفة مميزة فيه. ومن أمثلة هذا ما ذكره ابن قيم الجوزية مبرراً اعتبار العلاقة بين الدال ومدلوله: «إنّ المناسبة معتبرة بين

اللفظ ومعناه طولا وقصرا وخفة وثقلا وكثرة وقلة وحركة وسكونا وشدة ولينا، فإن كان المعنى مفردا أفردوا لفظه وإن كان مركبا ركبوا اللفظ وإن كان طويلا طولوه كالقطنط والعشنق للطويل، فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه، وانظر إلى لفظ بحتر وما فيه من الضم والاجتماع، لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق. وكذلك لفظة الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجد في ألفاظها ما يناسب مسمياتها. وكذلك لفظا الحركة والسكون مناسبتهما لمسمياتهما معلوم بالحس وكذلك لفظ الدوران والنزوان والغليان وبابه في لفظها من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها...».[37]

وما يدرك ممّا سبق أن المناسبة بين الدال ومدلوله قائمة، إلا أنّ هذه المناسبة لا تشكّل إلا جزء من تصور الواضع لحقيقة الشيء وإدراكه لماهيته، وبالتالي يقع الدال على الجزء البارز في المدلول المتصور في الذهن كالصوت والشكل أو أي ميزة أخرى... فلا يمكنه التعبير بلفظ يصف الماهية الحقيقية للشيء أو الحدث المنطبع في الذهن لأن ذهنه متعلق بجانب فيه أو وظيفة معيّنة يؤديها ذلك الشيء. فهذا مثلا يقول: سيارة متعلقا ذهنه بصفة الحركة – السير– التي تقوم بها هذه الآلة، وآخر يقول مركبة متعلقا ذهنه بالجانب الوظيفي – الركوب – لها وهو وسيلة النقل وهكذا... والمناسبة حاصلة في كلا اللفظين كما يلاحظ في الدلالة عن ذات الشيء. وقد أشار إلى هذا مصطفى صادق الرافعي في قوله: «الكلمة في الحقيقة الوضعية إنّما هي صوت النفس؛ لأنّها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة عن هذا التركيب».[38]

ولما كان حال البشر في استعمالهم للغة ومفرداتها يخضع للنسبية سواء من حيث دلالة المفردة على مدلولها في إطارها الجزئي أو من حيث دلالتها في الاستعمال النصي عن المعنى العام، فإنّ ذلك بالنسبة للقرآن يختلف تماما لأن الله يصف الأشياء وصفا يدل على حقيقتها، فالمفردة القرآنية تأتي في موضعها المناسب من التعبير القرآني كله لتصف حقيقة الشيء المراد وصفاً مطلقاً. ولعلّنا بهذا نفسّر جانباً يظهر لنا عجز البشر، ولو

اجتمعوا على الإتيان بمثل القرآن، أو حتّى استبدال موضع حرف منه أو تغيير مفردة فيه. لأنّ مفرداته ترد عبر كامل بنيته على قدر واحد من البيان في أداء المعنى دون أدنى تفاوت أو تقصير مستقرة في مكانها متمكنة فيه بمختلف صيغها على غرارها في الاستعمال البشري، مما دعى ابن عطية إلى أن يقول في هذا الصدد: «وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام».[39]

كما أنّ النظر إلى طبيعة العلاقة بين الدال ومدلوله للمفردة القرآنية مسألة مهمّة لها خصوصيتها، فلا يمكن مراقبتها من منطلق علم اللغة الحديث الذي يضع تلك العلاقة تحت رحمة الاعتباط معتبرا اللغة ظاهرة اجتماعية خاضعة لقوانين التطور باستمرار، إنّ المفردة القرآنية ترد في نص معجز له خصوصيته لارتباط معانيه ودلالاته بعلم المولى ﷻ ، كما أن هذه المسألة هي ذات ارتباط عميق بمسألة النظم، لأن إدراك حقيقة العلاقة بين الدال ومدلوله يترتب عليه وضع اللفظ في موضعه المناسب له من النظم وبهذا يتحقق كمال المبنى والمعنى معاً، وهذا الأمر لا يقدر عليه إلا المطلق الذي أحاط بكل شيء علما. ولم يكن هذا الأمر ببعيد عن تصوّر أبي سليمان الخطابي في حديثه عن الإعجاز، بِعَدّه للمفردة أحد المحاور الثلاثة التي يرتكز عليها، فقد ذكر أن العجز والقصور البشري متحقق في عدم علمهم وإحاطتهم بماهية معاني الأشياء التي جعلت لها الألفاظ ظروف وحوامل في قوله: «إنّ علم البشر لا يحيط بجميع أسماء العربية (بألفاظها) التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله».[40]

وهو كذالك ما أشار إليه ابن عطية في نظرته للإعجاز بقوله: «ووجه إعجازه أن الله

تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما. فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبيّن المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا النظر يبطل قول من قال:" إن العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه". والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل...».[41]

والذي يستنتج مما سبق تداخل العلاقة بين المفردة القرآنية على اعتبار أنّها تصف لنا حقيقة الشيء وصفاً مطلقاً، وبين ارتباطها بالمعاني والنظم القرآني. فالعلاقة بينهم علاقة تفاعل وتكامل مطلق. فكل من الألفاظ والمعاني يتجاذبان في البنية القرآنية ليسدا أي نقص وخلل قد يُتصوّر، وهذا ما يعطينا في النهاية صورة من الكمال اللغوي المعجز. لتتكشف لنا هذه الصّورة العلائقية كما عبّر الرافعي على شيء هو «من أعجب ما رأينا في إعجاز القرآن وإحكام نظمه، أنّك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه. ثمّ تتعرف ذلك وتتغلغل فيه فتنتهي إلى أنّ معانيه منقادة لألفاظه، ثم تعرف العكس وتتعرفه متثبّتاً فتصير منه إلى العكس ما حسبت وما إن تزال متردداً على منازعة الجهتين كليهما، حتى تردّه إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة. لأنّ ذلك التوالي بين الألفاظ ومعانيها. وبين المعاني وألفاظها، مما لا يعرف مثله إلا في الصفات الروحية العالية، إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله فركَّبتهما تركيبا مزجياً بحيث لا يجري حكم في هذا التجاذب على إحداهما حتّى يشملها جميعاً».[42]

الخواص البيانية الجمالية للمفردة القرآنية

فمما سبق وفي إطار الخصوصية الدلالية للمفردة القرآنية نجدها في التعبير القرآني

تنفرد عنها في التراكيب ذات الصيغة البشرية بخصائص ومميزات بيانية جمالية بلغت بها درجة الإعجاز في التعبير عن المعاني بأكمل أسلوب وأجود نظم من الصياغة والتأليف، ولعل مرد ذلك كما يرى محمد محمد داود يعود لأمرين:

أحدهما: لأنها تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه، لا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية. **والآخر:** تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسدّ مسدّها، ولم يغن غناءها، ولم تؤدّ الصورة التي تؤدّيها.[43] وسنقف عند بعض هذه الجماليات البيانية فيما يأتي من مظاهر

أولا – الدقة البيانية في توظيف المفردات وائتلافها للوفاء بالمعنى

القرآن دقيق في توظيف مفرداته حتى تفي بالمعنى المقصود على أكمل وجه وأتم صورة فتبدو بدقة استعمالها، ودقة دلالتها كأنّها فوق اللغة كما عبر عن ذلك الرافعي في قوله: «لقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصاحة هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة».[44] وأمّا أبو سليمان الخطابي فيرى أنّ عمود بلاغة الخطاب عامة لا يقع إلا بحسن اختيار الكلمات، فكيف بذلك في بلاغة القرآن الكريم: « .. اعلم أنَّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة».[45]

يراعي التعبير القرآني هذا الجانب مراعاة بالغة في كل مفرداته فهي موضوعة في مكانها

المناسب لا تؤدي أي كلمة غيرها المعنى الذي تؤديه هي، وهذا ما وقف عنده الأعرابي ذو السليقة الصافية من دقة التعبير القرآني في اختيار اللفظ لموافقة المعنى ووفائه به. لماّ لاحظ الخلل الذي وقع للمعنى باختلال دلالة لفظه لما استبدل بغيره. فقد روي أن بعض الأعراب سمع قارئا يقرأ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ إلى آخرها، وختمها بقوله: ﴿ والله غفور رحيم ﴾ فقال: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المائدة: ٣٨. فقال: بخٍ بخٍ، عز، فحكم، فقطع.[46]

وروى السيوطي أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ: ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾. ولم يكن يقرأ القرآن. فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا. ومر بهما رجل فقال: كيف تقرأ هذه الآية. فقال الرجل: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٠٩. فقال: هكذا ينبغي الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه.[47]

ندرك من هذا أنّ ختم الآيةِ بأحد أسماء الله الحسْنى مُشعِرٌ بعلاقة بين هذا الاسم وبين مضمون الآية لذلك اختير الاسم دون غيره للدلالة على المعنى فلمّا استبدل اختلّ المعنى وتناقض . وقد أشار الجاحظ إلى الدقة القرآنية الفنية المعجزة في اختيار مفرداتها في قوله: «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث».[48] وهذه نماذج من دقة التعبير القرآني في توظيف مفرداته فيما يأتي:

1. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٨٤. اختار التعبير القرآني لفظة

"يطيقونه" ولم يقل "يستطيعونه"، وليست الكلمتان سواء. فلفظ الاستطاعة حسّ الطواعية والمواتاة والقدرة. ولو كان المكلف بحيث يستطيع الصوم، فالتكليف قائم لا تقبل عنه فدية ولا قضاء. وأما الطاقة فتدل على أقصى الجهد ونهاية الاحتمال. وحين يقول العربي لصاحبه: هل تطيق هذا؟ لا يقولها إلا وهو يُقدّر أنّ هذا مما لا يحتمل ولا يستطاع. وقد وردت دلالة "طاقة" في القرآن الكريم مرتين في سورة البقرة:في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٤٩. وقوله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٨٦.

وبهما يستأنس في دلالة " الإطاقة " في الآية السابقة، فيصبح الأمر في احتمال الصوم إذا جاوز الطاقة إلى ما لا يطاق، سقط التكليف. لأنّه لا تكليف شرعا بما لا يطاق، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها. فالحكم بالفدية غير وارد على من يستطيعونه، إذ التكليف مع الاستطاعة قائم. وغير وارد على من يطيقونه؛ بسقوط التكليف عمن لا يطيق. وإنما الفدية تيسير على من يطيقونه، بمعنى من يستفيد الصوم طاقتهم وأقصى احتمالهم، فليسوا بحيث يستطيعون القضاء عدّة من أيّام أخر.(49)

وبذلك لا يكون هنالك داعٍ لتقدير محذوف لأن الفعل في نفسه مثبتا كما ذهب أبو حيّان في تفسيره حيث قال: وجوّز بعضهم أن تكون : لا ، محذوفة ، فيكون الفعل منفياً، وقدره: وعلى الذين لا يطيقونه ، قال: حذف: لا ، وهي مرادة... وتقدير: لا ، خطأ لأنه مكان إلباس. ألا ترى أن الذي يتبادر إليه الفهم ، هو : أن الفعل مثبت، ولا يجوز حذف: لا ، وإرادتها إلاَّ في القسم ، والأبيات التي استدل بها هي من باب القسم، وعلة ذلك مذكورة في النحو.(50)

2. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٢٨.

قُصد هنا التنويه بعظمة الأجر التعويض عن ترك الانشغال بالأموال والأولاد، ولهذا

فضّل القرآن واختار كلمة "عظيم" على "كبير". و الفرق بينهما أنّ العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكأنّ العظيم فوق الكبير كما أنّ الحقير دون الصغير.(51)

3- ومن روائع اختيار القرآن للألفاظ ما ذكره ابن أبي الإصبع في باب الاحتراس في مصنفه "بديع القرآن" في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ القصص: ٤٤.

لما نفى تبارك وتعالى عن رسوله ﷺ كونه بالمكان الذي قضى لكليمه الأمر، عرّف المكان بالجانب الغربي، ولم يصفه باليمين، كما قال في الإخبار عن موسى عليه السلام ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ مريم: ٥٢. أدبا منه سبحانه تعالى مع نبيه ﷺ أن ينفي عن كونه بالجانب الأيمن، ووصف ههنا سبحانه الجانب باليمين، إذ أخبر أنّه سبحانه أنّه نادى منه كليمه موسى عليه السلام فالمح هذا الاحتراس اللطيف، وتدبر خبايا هذا الكلام الشريف.(52)

إنّ المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام يمكن أن يدل عليه بوصفين: كونه الجانب الأيمن، وكونه الجانب الغربي. فآثر القرآن في الإخبار عن موسى "الجانب الأيمن" في تعريف المكان لأنه كان قارا عليه. وفيه قضى إليه ربّه أمر الرسالة، ففي ذلك تشريف له.

وكان في خطاب محمد ﷺ التعريف بالجانب الغربي لأنّه لم يكن قارًا عليه والكلام مسوق لنفي الكينونة. واستعمال الجانب الغربي دون الجانب الأيمن في حال نفي اللكينونة أليق بمقام الرسول ﷺ لخلوه من نفي كونه بالأيمن.(53)

ولا يكتف البيان القرآني بانتقاء ألفاظه واختيارها بدقة بل يتعدّى ذلك إلى تصويب الخطأ الذي يقع في استعمال بعض الألفاظ في غير مواضعها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٠٤. يقول برهان الدين البقاعي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، أي أقروا بالإيمان صدقوا إقراركم به بأن لا تقولوا للنبي ﷺ: ﴿راعنا﴾ التي تقصدون بها

الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وخفض الجانب، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها أرعونة؛ وهي إفراط الجهالة فنهاهم عن موافقتهم في القول منعاً للصحيح الموافق في الصورة لشبهه من القبيح وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد. فقال ﴿وقولوا انظرنا﴾ فأبقى المعنى وصرف اللفظ. قال الحرالي: ففيه إلزام تصحيح الصور لتطابق تصحيح المقاصد وليقع الفرق بين الصورتين كما وقع الفرق بين المعنيين فهي آية فرقان خاصة بالعرب.[54]

ونجد هذه العناية كذلك في قوله تعالى:﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحجرات: ١٤.

نبّه القرآن إلى أن يلتزم الأعراب الدقة في التعبير، فيقولوا:(أسلمنا) بدلا من (آمنا) حتّى تقع الكلمة على معناها الحقيقي دون تحريف، ومن البديع في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أغلظ عليهم وجهّلهم بعدم الدقة في استعمال الكلمات في محلها، أدخل على الكلام شيئا من المحاسن، وستر الغلظة بنوع من اللطائف، فأتى بأداة الاستدراك، فقال:﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾، فلو اقتصر على ما دون الاستدراك، لكان في الكلام تنفير لهم وإساءة، فأوجبت البلاغة، وحسن التلطف ذكر الاستدراك، ليعلم أنّ الإيمان موافقة القلب للسان، وإنّ انفراد اللسان يسمّى إسلاما، ولا يسمّى إيمانا، وزاد ذلك إيضاحا ولطفا، فقال: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾.[55]

ومن مظاهر دقة اختيار المفردات ومناسبتها للموقف والسياق الواردة فيه مذكر ما اسماه فاضل السامرائي"تعاور المفردات" وهو ما بحث فيه كثيراً أصحاب المتشابه اللفظي. ويظهر ذلك خاصة في القصص القرآني إذ نجد التعبير عن الحدث نفسه بألفاظ متعددة، وما ذلك إلا لملحظ دقيق وفائدة جليلة تصحب هذا التعدد في التعبير عن القصة الواحدة في بعض مشاهدها بمفردات متعددة تناسب سياقاتها.

ومنه التعبير عن خروج الماء تارة بلفظ الانفجار و تارة أخرى بلفظ الانبجاس في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ البقرة: ٦٠. وقوله ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ الأعراف:١٦٠. الانفجار يكون للماء الكثير، وأما الانبجاس للماء القليل. وكل تعبير يناسب موطنه. فإنّ المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إنّ موسى هو الذي استسقى ربّه فناسب إجابته بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة: إنّ الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحيًا فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس.(56)

ومن ذلك في قوله تعالى :﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ الأعراف: ١١١ . وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ الشعراء: ٣٦. يقول ابن جماعة: كلاهما معلوم المراد، فما فائدة اختلاف اللفظين؟

"أَرْسِل" أكثر تفخيما من "ابْعَث" وأعلى رتبة، لإشعاره بالفوقية. ففي الأعراف حكى قول الملإ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعلى رتبة تفخيما له، وفي الشعراء: صَدَّر الكلام بأنه هو القائل لهم، فناسب تنازله معهم ومشاورتهم له وقولهم: "ابعث"(57)

ثانيا- خاصية الإيحاء الجمالية للمفردة القرآنية.

تعد خاصية الإيحاء الدلالي من بدائع الفرائد التي تتميز بها المفردة القرآنية خاصة، لما لها من تأثير واضح في النفوس والألباب بما يصدر من المفردة ، من خلال قدرتها على تصوير المعنى بمختلف ظلاله الدلالية، وابتعاثه في الذهن ليحقق إلى جانب دلالتها اللغوية أكمل صورة من البيان والإفهام. وقد تنبه العلماء قديماً إلى هذه الناحية من التأثير

في القرآن وعدّوها من مظاهر إعجازه، ولعل هذا ما أشار إليه أبو سليمان الخطابي في قوله: «قلت: في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن. منظوماً ولا منثوراً. إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها...» (58)

وممن نبّه إليها واهتم بها في العصر الحديث نجد مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب وعبد الله درّاز. إلا أنّ سيد قطب كان أكثرهم عناية بها للكشف عن النواحي الجمالية في ألفاظ القرآن وتراكيبه وسوره... فهو يقول عن ذلك: «إنّ القرآن حين يختار لفظا تجده دالا على معناه بالجرس، أو بالظل. أو بالظل والجرس معا. وفي هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية. اللذين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن».(59) وتعد هذه الخاصية في نظر عبد الله دراز هي المكوّن للقشرة السطحية للجمال القرآني من خلال ما تحدثه من جمال توقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته، وجمال تنسيقي في رصف الحروف وتأليفها.(60) وسنشرع في بيان بعض ملامح هذه الخاصية لقرآنية من جانبين هما: **الأول:** الإيحاء عن طريق الجرس والإيقاع الصوتي للمفردة القرآنية. **والثاني:** الإيحاء عن طريق التصوير الفني في المفردة القرآنية.

1 . جمالية الإيحاء الصوتي للمفردة القرآنية. تمتاز المفردة القرآنية بجمال إيقاعها في السمع ووقعها الذي يسلب العقول ويأسر القلوب عند حدود المعنى المرتسم من الطابع الصوتي لها الذي يلهمك المعنى قبل أن تبحث عن معناه اللغوي فيوقظ في نفسك المشاعر والأحاسيس الخامدة بمتاع الحياة وشهواتها فيجعلها تتشوّق وتتشوّف

لما هو أسمى وأبعد من حدود الطين والمادة. واللغة ذاتها وإن كانت في أحيان كثيرة قاصرة وعاجزة في التعبير عن جميع المعاني والمشاعر، فكيف للقرآن أن يسخر كلماته لما وراء الحدود التي تقف عندها طاقة اللغة، وهو إنما يستعمل في تعبيراته اللغة ليس إلا ؟ إنّ القرآن يستعمل من الكلمات أدقها دلالة، وأتمها تصويرا فإذا استنفذت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود البلاغة، اتسعت لها الكلمة وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع.[61] يقول مصطفى صادق الرافعي : «ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروع».[62] ومن الأمثلة التي تبرز جماليات هذه الخاصية في المفردات القرآنية ما يأتي:

1- كلمة "يصطرخون" في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ فاطر: ٣٧.

إنّ هذه المفردة بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن، تمثل الموقف أدق تمثيل. فالصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدوٍ يختلط بعضه ببعض. بدءًا ونهاية. ويملأ المكان صخبا ورنينا. إنّك لتلحظ أثر "الصاد" و"الطاء" في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة، فهل

كنت تحسّ شيئا من ذلك لو وضعت كلمة "يدعون" الهادئة الوديعة مكان "يصطرخون" الهادرة العنيفة؟ وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدى لولا كلمة "يصطرخون" الملائمة لجوهم النفسي أدقّ ملائمة وأبرعها.[63]

2- لفظة " ليبطئن " في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ النساء: ٧٢. « ليبطئن » مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر؛ وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها .[64]

3- نلمح هذه الحالة كذلك من التهاون والتثاقل في لفظة " اثاقلتم". في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ التوبة: ٣٨. اشتملت الآية على أداء فني قام به اللفظ "اثاقلتم" بكل ما يتكون من حروف، وبصورة ترتيب هذه الحروف، وحركة التشديد على الحرف اللثوي الثاء، والمد بعده، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة، ثمّ التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخرج صوتها من الأنف... هذا بالإضافة إلى ما يشعر به البطء في نطق الكلمة ذاتها من حركة بطيئة موجودة من المتثاقل.[65] يقول سيد قطب: «إنّ في هذه الكلمة "طنًا" على الأقل من الأثقال. ولو أنّك قلت: تثاقلتم، لخفّ الجرس، ولضاع الأثر، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقلّ برسمها». [66]

2. جمالية الإيحاء التصويري الفني للمفردة القرآنية (ظلال المعنى).

يقول سيد قطب: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن».[67] ولهذا تتميز المفردة القرآنية بقدرتها على تصوير المعاني المتعلقة بها وتشخيصها بنقلها من التجريد إلى الحركة، فتجعل هذه الأداة اللفظ ينبض بالحياة وتكسبه آلية الحياة فيصبح من مجرد حروف منظومة تحمل معنىً لغويا إلى مفردة حية تنقل لنا المعنى القرآني في جو من

التصوير الحي، وتجعلنا نعيش لحظاته ونتشوق لإعادته « ... وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة. إنّها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة».[68] وتظهر هذه الخاصية في التعبير القرآني بكامله فلا يعتريها التفاوت ولا الترهل في موضع دون آخر, لأنّها كما يرى سيد قطب ليست مجرد حلية أسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتفق. إنما هي مذهب مقرر، وخطة موحدة، وخصّيصة شاملة، وطريقة معينة، يفتنُّ في استخدامها بطرائق شتّى، وفي أوضاع مختلفة. فاللغة البشرية قد تعجز في أدائها التعبيري عن اللحاق بالصورة المحلقة التي يريد المتكلم أو الكاتب أن يبثها في خيال السامع، فيضطرّ إلى أن ينزل من بساط خياله المحلق لحاقًا بكلمة تقف دون الصورة التي يريدها، لا يجد في اللغة سواها فيفسد بها الصورة كلها. في حين أنّ القرآن لا يعجزه أن تكون الكلمة دائما في مستوى المعنى المراد على أدق وجه، فهو يصعد بالكلمة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة، ولا ينزل بهما إليها في حال من الأحوال.[69]

ولذلك نجد المفردة القرآنية تستقل بنقل المعنى إلى خيال السامع، وهي في الوقت نفسه تستميل وجدانه بظلالها التي بُثّت فيها الحركة والحياة، والقرآن الكريم حافل بمثل هذه الصور نبرز منها ما يأتي:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الأعراف: ١٧٥. تصور لنا هذه الآية تملص رجل من الإذعان لهدى الله، فاختير لهذه الحال كلمة "انسلخ" وهذا اللفظ يرسم لنا صورة عنيفة حية وفظيعة لمشهد الانفصال عن هدى الله.

الانسلاخ لغة: إزالة الستور. يقال: انسلخ الرجل من ثيابه إذا طرحها، والشاة إذا أزيل عنها جلدها. فكان خروج الرجل عن طاعة الله إلقاء لستوره وما يحفظ عليه أمره، فهو لا يلوي على شيء من أسباب الكرامة ودواعي التوقير.[70] فصوّرت حالة إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما

الآيات أديم له متلبس بلحمه؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه... أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقي والدرع الحامي؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.(71)

2- لنتطلع إلى صورة الحذر في حالة من الخوف الشديد التي يلقي بها ظل كلمة "يترقب" في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ القصص: ١٨. وقال: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٢١. يصور لفظ "يترقب" هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة... والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتي (في المدينة) فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر!. (72)

4- هذا هو الصبح يتنفس ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير: ١٨. فيُخيّل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياها، وهو يتنفس فتتنفّس معه الحياة، ويدبّ النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء. وهذا هو الليل يسرع في طلب النّهار، فلا يستطيع له دركا ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ الأعراف: ٥٤. ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة التي لا نهاية لها ولا ابتداء. وهذا الليل يسري ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ الفجر: ٤. فتحسّ سريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد.(73)

ثالثا – خاصية ترامي الأعماق الدلالية للمفردة القرآنية.

المفردة القرآنية كالهالة المشعّة التي تلقي بإشعاعاتها، كلّما دنوت منها وتأملتها بهرتك بكثافة اشعاعها وكلما ابتعدت عنها احتواك نورها وغمرتك باتساع اشعاعها، وكذا

حال مفردات القرآن التي كلما تعمقت في النظر فيها هزّتك بجمالها وروعة توظيفها ودقة معناها وكماله، وتكشّفت لك عن معان جديدة تضيء لك دروب الحق فلا تظلّ في هدي القرآن وبيانه المعجز. وما ذلك إلاّ لأنها كما يقول عبد الصبور شاهين تحمل من الأعماق الدلالية اللامتناهية «ما يجعلها ذات مساحة عريضة مترامية، وذات عمق لا تبلغ مداه العقول، وإذا كان ذلك في محاولات البشر ولغاتهم قليلا في استعمالهم، فإنّ القرآن جاء على هذا النمط الفريد الباهر... والعجب العجاب في ألفاظ القرآن: وضوح زاحف إلى خفايا المجهول، فلا أمل في بلوغ منتهاها».[74]

فمنذ أن نزل القرآن الكريم وهو موضع الاهتمام الذي يمم نحوه العلماء والباحثون عقولهم وأقلامهم باحثين فيه عمّا يبرز إعجازه، وما يزال يستهويهم إلى اليوم ويدعوهم للكشف عن كوامنه وأسراره. ذلك أنّه كتاب منفتح الدلالة متجدد المعاني محفوظ من التحريف والتزييف يتسم بقابلية القراءة والتذكر في كل زمان ومكان لا يتخلف عن حركة التاريخ البشري بل يحتويها ويتجازوها باطلاقيته. قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر: ١٧. فهو كما يصفه مصطفى محمود بمثابة "كائن حي" [75] فكانت مفرداته التي يتركب منها أسلوبه المعجز متسمة بالاتساع الدلالي والتشبع بالمعاني فهي تحمل في ثناياها لكل جيل من المزايا بقدر تعامله وفاعليته مع النص القرآني الذي يدعو الإنسان باستمرار إلى التدبر والتأمل والتفكر.

ويبيّن لنا عبد الله درّاز خاصية الاتساع الدلالي لمفردات القرآن وتجدد معانيها بمعاودة المراجعة والاستذكار مشبها إيّاها بالماسة في قوله : «وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملامسة والاحكام والخلو من كلّ غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاه على نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث. كأنّك لا تسمع كلاما ولغات بل ترى صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيّل إليك أنّك قد أحطت به خبرًا ووقفت على معناه محدودًا. هذا ولو رجعت إليه كرّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنىً جديدًا. غير الذي سبق إلى فهمك أول مرّة. وكذلك... حتّى ترى للجملة الواحدة أو

الكلمة الواحدة وجوهًا عدّة كلها صحيح او محتمل الصحة، كأنّها هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطّيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينيك وماذا تدع ولعلّك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يُسّر له، بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحدّه عقول الأفراد ولا الأجيال».(76)

ويصور لنا مصطفى محمود الطبيعة الحركية الحية للمفردات القرآنية, والتي يشبّهها بالخلايا المكوّنة للكائن الحي الكامل: «وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي. الكلمة فيه أشبه بالخلية؛ فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي ومع ذلك فهي لا تتكر أبدًا وإنما تتنوع وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مئات المرات، ثمّ نكتشف أنّها لا تتكرر أبدا برغم ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديدًا، وما يحدث أنّها تخرجنا من الإجمال إلى التفصيل، وأنّها تتفرع تفرعًا عضويًا، والقرآن بهذا المعنى يشبه جسما حيًّا، والكلمة تشبه كائنا حيّا أو خلية جنينية حيّة، فهي تتفرع عبر التكرار الظاهر لتعرض مشاهد يكمّل بعضها بعضا تماما كما تنقسم خلية الجنين لتعطي خلايا الرئتين والقلب والكبد... لتعطينا في النهاية إنسانا كاملا، وقد جاء هذا التفصيل من خلايا متشابهة. فذلك هو التفصيل الذي كان مجملاً في الخلية الأولى للجنين».(77) ويمكن أن نبرز هذه الخاصية المتفردة في مظهرين:

المظهر الأول: الاتساع الدلالي للمفردة بحسب السياق الواردة فيه. تنبّه العلماء إلى هذه الخاصية المتميزة في المفردات القرآنية، ونلفى هذا خاصة عند من صنّفوا في علم الوجوه والنظائر من الذين راقبوا للمفردة الواحدة في الاستعمال القرآني عدّة دلالات باختلاف السياق الواردة فيه ، ونضرب مثالا يقربنا من هذه الخاصية الدلالية للمفردات القرآنية :

.دلالة البر في القرآن: البّر في الأصل: اسم لما يحصل به للمبرور النفع يقال: بره يبره برا. وذكر أهل التفسير أن البر في القرآن على ثلاثة أوجه: **أحدها:** الصلة، ومنه قوله

تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٤؛ أراد أن تصلوا القرابة . وفي قوله: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة: ٨.

والثاني: الطاعة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة: ٢. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ مريم: ١٤. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ مريم: ٣٢.

والثالث: التقوى. ومنه قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٤٤، وفيها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ البقرة: ١٧٧. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران: ٩٢. (وقال ابن عباس : لن تنالوا الجنة . فيكون من أبواب الأربعة) .[78]

ولعل المتأمل في هذا المثال وغيره مما ورد في مصنفات علم الوجوه والنظائر يرى كما يذهب مساعد الطيار أن البحث فيه مرتبط بالنص القرآني مباشرة، حيث يستنبط المفسر معاني الوجوه والنظائر من الآيات مباشرة، ويقتنصها من السياق القرآني الذي وردت فيه اللفظة، وهذا ما يبرر عندهم كثرت الوجوه في بعض الألفاظ بسبب النظر إلى الاستعمال السياقي، دون الاقتصار على أصل المدلول اللغوي.[79]

المظهر الثاني: الكثافة الدلالية للمفردة القرآنية (التشبع الدلالي). هذه الخاصية من بدائع المفردات القرآنية, وذلك بتميزها بما يمكن أن نطلق عليه اسم التشبع الدلالي. والذي رأينا بعض ملامحه في حديثنا عن جمالية الإيحاء عن طريق الجرس الصوتي والأداء التصويري. وتعد هذه الميزة من المظاهر الإعجازية التي تتميّز بها المفردة القرآنية، فكل كلمة في القرآن لها من عمق الدلالة ما يجعلها ذات مساحة واسعة، وذات عمق لا تبلغ

مداه العقول، وذلك أنّ المفردة القرآنية مشبعة بالمعاني والدلالات المركوزة في داخل بنيتها كلفظة ضمن نص إلهي غير متناهي الدلالات، فهي تحمل من المعاني ما لو فصّل لتعدّى الصفحات الطوال، وقد تفطّن الجاحظ إلى هذه الميزة وأشار إليها في كتابه "البيان والتبيين" عندما تحدّث عن مزايا النار وأنواعها في قوله: «وقالت الحكماء إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطب فجمع بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ النازعات: ٣١. النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرعى. ثم قال على النسق ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ النازعات: ٣٣. فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله لأن الملح لا يكون إلا بالماء ولا تكون النار إلا من الشجر وقال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يس: ٨٠. وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ الواقعة: ٧١ – ٧٣. والمرخ والعفار والسواس والعراجين وجميع عيدان النار، وكل عود يقدح على طول الاحتكاك فهو غني بنفسه بالغ للمقوى وغير المقوى وحجر المرو يحتاج إلى قراعة الحديد وهما يحتاجان إلى العطية ثم إلى الحطب والعيدان هي القادحة وهي المورية وهي الحطب. قال الله عز و جل: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ الماعون: ٦ - ٧. والماعون الماء والنّار والكلأ».[80]

ويرى عبد الرحمن حسن حبنك الميداني أنّ الإيجاز بالقصر يقوم على ثلاث عناصر أساسية، وذكر منها عناية المتكلم بتخير الألفاظ التي تحمل من المعاني أو اللوازم الفكرية ما يغني عن ذكر جمل بحالها. يقول: «وقد يجد منشئ الكلام أنّه يحتاج إلى عدد من الكلمات أو العبارات حتَّى تُؤَدِّيَ معنىً مِن المعاني، ثمّ يرى أنّ باستطاعته أن يختار كلمة واحدة، أو عبارةً ما قصيرة، تستدعي بطبيعة معناها لوازم فكريّة، يستطيع المتلقّي أن يكتفي بها عن الكلمات أو العبارات المتعدّدات إذا جاءت بديلاً في الكلام. عندئذٍ

يَعْدِلُ إلى اختيار الكلمة أو العبارة ذات اللّوازم الفكرية، مستغنياً بها عن كلام طويل، ليوجز في كلامه ويجعله قصيراً مع غزارة في معانيه».[81]

ومن النماذج القرآنية التي أوردها كلمة "الذِّكْر" المختارة للتعبير بها عن القرآن في كثير من نصوص الكتاب العزيز قال: «تُغْنِي بلوازمها الفكريّة عن جملة كلمات أو عبارات تتضمّن المعانيَ التالية « تبليغ القرآن – وجوب تلقيه عن المبلّغ – وجوب فهمه وتدّبره – وجوب حفظه – وجوب جعله حاضراً في الذاكرة ليُرْجَعَ إلى نصوصه عند كلّ مناسبة داعية لمعرفة دين الله وأحكامه ». كلُّ هذه المعاني فهمناها باللُّزوم الذهني، لأنَّهُ لا يكون ذِكْراً دواماً ما لم يكن مسبوقاً بالتبليغ والتلقّي والفهم والتدبّر والحفظ فمن استوفى كلّ هذه الأمور كان القرآن بالنسبة إليه ذكراً، وإلاَّ كان مَتْرُوكاً منسيّاً، فأغنت كلمة واحدة ذات لوازم ذهنيّة عن عَددٍ من الكلمات أو العبارات، دون أن يُقَدَّرَ في الكلام محاذيف، والوسيلة هنا في هذا الإيجاز الاستغناءُ بما تُعْطيه اللوازم الفكرية، وحُسْنُ انتقاء الكلمات التي تَدُلُّ على اللوازم الفكريّة المطلوبة».[82]

ومن الأمثلة القرآنية التي نوردها لبيان هذه الخاصية الجمالية في التعبير القرآني ما يأتي:

1- لننظر إلى الصورة المتشبعة بالمعاني التي ينقلها الفعل "أفضى" في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ النساء: ٢١. يقول سيد قطب في تفسيره: «ويدع الفعل: ﴿أَفْضَىٰ﴾ بلا مفعول محدد. يدع اللفظ مطلقاً يشع كل معانيه ويلقي كل ظلاله ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته. بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات والأسرار والهموم والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان... وفي كل اختلاجة حب إفضاء. وفي كل نظرة ود إفضاء. وفي كل لمسة جسم إفضاء وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء. وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء. وفي كل شوق إلى خلف إفضاء. وفي كل التقاء في

وليد إفضاء... كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾... فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف! ».(83)

2- يضرب لنا عبد الصبور شاهين مثالا عن هذه الخاصية القرآنية في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ التحريم: ٦. إن خيالنا مهما شطح لا يمكن أن يبلغ عمق دلالة هذه (النار) التي تستمد وقودها من الناس، ومن الحجارة، وقد حشر لها كل الكافرين في تاريخ البشرية، وأعطيت عمر الخلود بلا نهاية. ونحن نفهم لفظة (الحجارة) هنا على أنها كل ما اتخذه الإنسان من معدن الأرض كنزاً في هذه الحياة الدنيا، ذهباً أو فضةً أو ماساً. إنّ الله وحده هو الذي يعلم مدى هذه النار وأنواعها، فإنّ نار الجحيم أروع وأهول، بحيث لا يملك المتأمل في اللفظة إلا أن يقول: الله اعلم، أي أن الكلمة القرآنية تبدأ في مرمى العين وفي استعمال أصحاب اللسان محدود، ولكنها في لغة القرآن، وربما ضمنت من معنى إلهي غير محدود. بل غنها مبهمة شديدة الإبهام، ذات دلالة لا نهائية.(84)

3- مفردة أخرى تصور لنا هذا التركيز الدلالي والتشبّع بالمعاني، وهي كلمة: "لباس" في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ ﴾ البقرة: ١٨٧. فلننظر إلى هذا التعبير المختصر الذي عبّر عن المرأة أنّها لباس للرجل وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة ولنتمعّن في معانيه العديدة العظيمة:

فشرط اللباس أن يكون خاصا بصاحبه وملكا له وحده وكذلك شرط المرأة أن تكون بالكلية لزوجها لا لغيره. وشرط اللباس أن يستر العورة فكذلك المرأة لزوجها والعكس فالمرأة ساترة لعيوب الزوج وليست أداة فضيحة.كما أنّ شرط اللباس

الطهارة، ولا يخفى من كل هذا ما في الكلمة من أبعاد توحي . فوق الطهارة والستر والخصوصية . بالقرب واللصوق .(85)

هذا هو القرآن في كل مفرداته كما عبّر عنه مصطفى محمود بنيانًا محكمًا من الألفاظ لا تستطيع أن ترفع فيه كلمة أو تبدّلها أو تؤخّرها أو تقدّمها... تتكرر كلماته بحساب ولحكمة ولهدف، لكي تكشف عن مكنوناتها وتبوح بأسرارها وثرائها. ثمّ إنّ التنوّع والتفصيل ينتهي بالقارئ إلى كمال مراد مقصود، وإلى تمام في الفهم والتصور. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنعام: ١١٥. فذلك هو التمام المقصود.(86)

وهكذا هي البراعة القرآنية في مختلف أحوالها السياقية ومظاهرها الأسلوبية في التعبير عن دلالاتها تتسم بالدقة المعجزة في توظيفها للألفاظ ووضعها موضعها المناسب لتعبّر عن حقيقة المعاني المصاغة لها وفق المنظور الإلهي المطلق الكامل المنزّه عن أي عيب أو نقص، ولا يمكن بحال أن يصدر من الكامل المطلق الذي أحاط بكل شيء علماً ما هو دون صفاته جلّ في علاه، فكان القرآن كلام الله المعجز المنزّل هداية ورحمة للناس أجمعين .

– الهوامش:

(1) . ينظر: ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت– لبنان، ط: (05)، (1401هـ –1981م)، ص:124- 128. فقد بين اختلاف العلماء وانقسامهم في تفضيل اللفظ أو المعنى.

(*) . يقول أبو هلال العسكري: "ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأنَّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صنعته ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعة، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه ". ينظر الصناعتين ت:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، دط، (1406هـ – 1986م)، ص:58.

(2) . يمكن أن يعد صنيع الإمام عبد القاهر هذا بمثابة المعادل، موازةً بالنظر إلى صنيع الجاحظ عندما اهتم باللفظ وبين قيمته بسب انتشار الحركة الفلسفية وعقليتها القائمة على الاهتمام بالبحث عن

المعاني العميقة الشاردة واستجلابها دون الالتفات لشأن الألفاظ.

(3). عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مكتبه الخانجي، القاهرة، ط:(05)،(2004م)، ص: 49.

(4). المصدر نفسه، ص:539- 540.

(5). ينظر محمود توفيق محمد سعد: نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر – المنوفية، العدد الواحد والعشرين، سنة (1423هـ)، ص: 48.

(6). أحمد مطلوب: بحوث لغوية، دار الفكر، عمان، ط:(01)، (1987م)، ص:98.

(7). ينظر: جون ستروك: البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، مؤسسة السلسلة (مجلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، (1423هـ- 1990م)، ع:206، ص:18 . 19. وينظر أحمد مطلوب: بحوث لغوية، ص:92. وينظر كذلك: شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية الحديثة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، ط:(01)، (2004م) ص: 12 - 13.

(*). يُعرف هذا الأمر كثيرا في الشعر الجاهلي حتى لقبت باسمه مدرسة سميت بالمدرسة الحولية، وأشهر أعلامها زهير بن أبي سلمى ... والحوليون هم الذين كانوا ينظمون القصائد ويعيدون النظر فيها حولا كاملا وكانت قصائدهم تلك تسمى بالحوليات والمنقحات والمقلدات والمحكمات... ينظر أبو عمرو الجاحظ: البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط:(07)، (1418هـ- 1998م)، ج:02، ص:09.

(8)- دلائل الإعجاز، ص:400 - 401.

(9)- عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني، دار المعارف، القاهرة، ط:(07)، دت.، ج:02، ص:08.

(10)- عدنان الرفاعي: نظرية الحق المطلق، ص:74.

(11)- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ت: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، م ع السعودية. المدينة المنورة، دط، دت ، ج:01، ص:297.

(12)- دلائل الإعجاز: ص:49.

(13)- ينظر ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ت: عمر فاروق الطبّاع، مكتبة المعارف، بيروت. لبنان، ط:(01)، (1414هـ. 1993م)، ص:208.

(14)- محمد بن إبراهيم الحمد: فقه اللغة، دار ابن خزيمة، الرياض . م.ع. السعودية، ط: (01), (1426ه- 2005م)، ص:237.

(15)- ابن فارس: المصدر نفسه ، ص:209.

(16)- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، الدار التونسية – تونس، دط، (1997م)، ج:03، ص:12.

(17)- ينظر: أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي: عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل. وينظر ابن معاذ الجهني الأندلسي: البديع في معرفة ما رسم في المصحف عثمانﷺ.

(18)- ينظر عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى، دار الخير، دمشق . سوريا، ط:(01)، (2006م)، ص:17.

(19)- المرجع نفسه، ص:18.

(20)- المرجع نفسه، ص:19.

(21)- ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:(02)، (1428هـ - 2007م)، ج:02، ص:791 .

(22)- ينظر إبراهيم أنيس: دلالة الالفاظ، مكتبة الانجلو المصرية، ط:(05)، (1984م)، ص: 62-63.

(23)- جون ستروك: المرجع نفسه، ص:18. وينظر كذلك شفيقة العلوي: المرجع نفسه، ص:09 - 16.

(24)- المرجع نفسه، ص:17.

(25)- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ الأدب العربي، ضبط: عبد الله المنشاوى ومهدي البحقيرى، دار الإيمان، ط: 01، (1997م)، ج:01، ص:54.

(26)- سامي محمد هشام حريز: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، دار الشروق, عمان- الأردن, ط (1) (2006م)، ص:34.

(27)- عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى، ص:419.

(28)- المرجع نفسه، ص:419 - 420.

(29)- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، دط، (1425هـ .2005م)، ص: 53.

(30)- المرجع نفسه، ص:54.

(31)- وليد قصاب: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن الرابع هجري، دار الثقافة قطر . الدوحة، ط: (01)، (1405هـ - 1985م)، ص:389.

(32)-الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، ط:(01)، (1424هـ - 2002م)، ج:01، ص:65.

(33)- ينظر جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط:(01)، ج:01، ص:48 - 55. ذكر طائفة من الذين تعرضوا لهذه المسألة، وأورد رأيهم في وجوه مناسبة الألفاظ لمعانيها.

(34)- أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط:02، (1371هـ - 1952م)، ج:02، ص:157.

(35)- المصدر نفسه ، ص:158.

(36)- المصدر نفسه، ص:163.

(37)- ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد الج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط:(01) (1416هـ - 1996م)، ج:01، ص:116.

(38)- الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (1425هـ - 2005م)، ص:152.

(39)- ابن عطية الأندلسي: تفسير المحرر الوجيز ، ت عبد السلام عبد الشافي محمد, دار الكتب العلمية, بيروت – لبنان, ط(1) , (1422ه – 2001م)، ج:01، ص:52.

(40)- أبو سليمان الخطابي: بيان إعجاز القرآن " من ثلاث رسائل في الإعجاز"، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط:(03)، دت ، ص:26 -27.

(41)- ابن عطية: تفسير المحرر الوجيز ، ج:01، ص:52.

(42)- الرافعي: إعجاز القرآن ، ص:36.

(43). محمد محمد داود: كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، دار المنار القاهرة، دط، دت، ص:204.205.

(44). الرافعي: إعجاز القرآن ، ص:156.

(45). أبو سليمان الخطابي: المصدر نفسه، ص:29.

(46). ينظر أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض - زكريا عبد المجيد النوقي- أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:(01)، (1413هـ - 1993م)، ج:03، ص:495.

(47). السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج:05، ص:1807.

(48). أبو عمرو الجاحظ: البيان والتبيين، ج:1، ص:20.

(49) . عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل نافع بن الأزرق، دار المعارف القاهرة،ط:(03)، ص:192.199.

(50). أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ج:02، ص:42.43.

(51). أحمد مختار عمر: لغة القرآن دراسة توثيقية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط:(02)، (1418هـ -1997م)، ص:145.

(52). ابن أبي الأصبع: بديع القرآن، ت:حنفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، دط، دت، ص: 94.

(53). عبد العظيم المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:(01)، (1413هـ.1992م)، ج:01، ص:254.

(54). برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الايات والسور، ت: عبد الرزاق غالب المهدي دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:(01)، (1415هـ - 1995م)، ج:03، ص:189.

(55). عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، دار المريخ – الرياض ، (1403ه – 1983م)، ص:08.

(56) . فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ط:(04)، (1427هـ . 2006م)، ص:322.

(57) . بدر الدين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ت:عبد الجواد خلف، دار الوفاء – المنصورة، ط:(01)، (1410هـ – 1992م)، ص:176.

(58). أبو سليمان الخطابي: المصدر نفسه، ص:70.

(59) . سيد قطب: النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، ص:39. وينظر كذلك: التصوير الفني في القرآن، ص:91.

(60) . عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم– الكويت، ط: (06)،(1405هـ– 1984م)، ص:101 . 104.

(61). محمد محمد داود: المرجع نفسه، ص:205.

(62). الرافعي: إعجاز القرآن، ص:156.

(63). عبد العظيم المطعني: المرجع نفسه، ج:01، ص:263.

(64). سيد قطب: في ظلال القرآن، مج:1، ص:705.

(65). أحمد مختار عمر: المرجع نفسه، ص:141.

(66). سيد قطب: في ظلال القرآن، مج:6، ص:3814.

(67). سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص:36.

(68). المرجع نفسه، ص:36.

(69). محمد محمد داود: المرجع نفسه، ص:207.

(70). عبد العظيم المطعني: المرجع نفسه، ج:01، ص:265.

(71). سيد قطب: في ظلال القرآن، مج:3 , ص:1396.

(72). سيد قطب: التصوير الفني، ص:95.

(73). المرجع نفسه، ص:73.

(74)– عبد الصبور شاهين: المرجع نفسه، ص: 53-54.

(75). مصطفى محمود: القرآن كائن حي، القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة، دط، دت.

(76). عبد الله درّاز: المرجع نفسه، ص:117. 118.

(77). مصطفى محمود: المرجع نفسه، ص:04.

(78). ابن الجوزي: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ت: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت، ط:(01) (1404هـ – 1984م)، ص:190. 191.

(78). مساعد بن سليمان الطيار: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط: (01) (1422هـ)،

ص:95.

(80). الجاحظ: البيان والتبيين، ج:01، ص:408.

(81) . عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط:(01)، (1416هـ.1996م)، ج:02، ص:31.

(82). المرجع نفسه، ص:32.

(83). سيد قطب: في ظلال القرآن، مج:1، ص:606.

(84). عبد الصبور شاهين: الرجع نفسه،ص:54.

(85) . مصطفى الدّباغ: وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الورقاء. الأردن، ط:(01)، (1986)، ص:31.

(86). مصطفى محمود: المرجع نفسه، ص:18.

The Quranic word Its privacy semantic and its characteristics rhetorical aesthetic

Hamza BOUKHAZNA*

Abstract

This article entitled: " The Quranic word its privacy semantic and its characteristics rhetorical aesthetic, deals with one of the major elements of paramount importance and effect on the Quranic text level i.e, " The Quranic word ". The latter represents the semantic key that enables us to understand its meanings and know evidences of its linguistic inimitability as well.

It also highlighted some of the features aesthetic semantic that the word is characterized in the Quranic expression.

Key words: text - the Koran - the statement - miracle - the language of the Koran.

---

* Maître-assistant: Faculté des sciences sociales et humaines, Université El-oued– Algérie.